منهج الشيخ رشيد رضا في الرد على منكري القرآن الكريم من خلال تفسيره (المنار)

إعـــــداد

الباحث/ محمد شحات إبراهيم

باحث ماجستير بقسم الدراسات الإسلامية

كلية الآداب - جامعة أسيوط

تمهيد:

أولى الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ القرآن الكريم عناية بالغة واهتماما كبيرا، فأشار إلى خصائصه ومكانته بين الكتب الإلهية، وما امتاز به عليها، وما اشتمل عليه من النور والهدى، فقال:" القرآن العظيم، القرآن الكريم، القرآن الحكيم، القرآن المجيد، الكتاب العزيز، الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(١)، هو كتاب لا كالكتب، هو آية لا كالآيات، هو معجزة لا كالمعجزات، هو نور لا كالأنوار، هو سر لا كالأسرار، هو كلام لا كالكلام، هو كلام الله الحي القيوم"(٢).

وبيّن الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ أن القرآن الكريم لم يتعرض لما تعرض له غيره من الكتب السابقة من التغيير والتبديل والتحريف، لأن الله (ﷻ) تكفل بحفظه فقال:" وما كفل (ﷻ) حفظ كتاب من كتبه بنصه إلا هذا القرآن المجيد الذي قال فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾(٣)، وظهر صدق كفالته بتسخير الألوف الكثيرة في كل عصر لحفظه عن ظهر قلب ولكتابة النسخ التي لا تحصى منه في كل عصر، من زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم إلى هذا العصر، وناهيك بما طبع من ألوف الألوف من نسخه في عهد وجود الطباعة بمنتهي الدقة والتصحيح، ولم يتفق ذلك لكتاب إلهي ولا غير إلهي، فأهل الكتاب لم يحفظوا كتب رسلهم في الصدور ولا في السطور"(٤).

وإلى هذا أشار الإمام أبو السعود ـ رحمه الله ـ فقال (ﷻ): ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من كل ما لا يليق به فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولا أوليا فيكون وعيدا للمستهزئين وأما الحفظ عن مجرد التحريف والزيادة والنقص وأمثالها فليس بمقتضى المقام فالوجه الحمل على الحفظ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلة في حقيته ويجوز أن يراد حفظه بالإعجاز دليلا على التنزيل من عنده تعالى إذ لو كان من عند غير الله لتطرق عليه الزيادة والنقص والاختلاف، وفي سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأن التنزيل مالا يخفى وفي إيراد الثانية بالجملة الاسمية دلالة على دوام الحفظ والله ـ ﷻ ـ أعلم"(٥).

المطلب الأول: الشبهات المثارة حول القرآن الكريم:

بالرغم من بلاغة القرآن وجمال أسلوبه وروعة بيانه، وما اشتمل عليه من الهدى والنور، إلا أنه لم يسلم من ألسنة المشككين وشبهات الملحدين. وقد تهجم المنصرون والمستشرقون وجهلة اللغة العربية على بعض الصور النحوية أو البلاغية التي لا يفهمونها في القرآن الكريم، سواء أكان هذا عن عمد أم عن جهل، فهو نفس حال الذى يريد أن يخبأ نور الشمس بمنديل يمسكه في يديه والعجب العجاب أنهم لا يرون ما يحمله كتابهم من مخالفات علمية، ونقائص أخلاقية،

وأخطاء حسابية، وصور للإله أو للأنبياء مشينة وتصفهم بكل النقص، فهم بحق لا يرون الخشبة التي في عيونهم، التي تعمى أبصارهم لرؤية نور وصفاء القرآن الكريم"(٦).

الشبهة الأولى: بلاغة القرآن:

ذكر الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ أن مثار هذه الشبهة هو معارضة أحد دعاة النصرانية لسورة الفاتحة في هذا العصر وأنها بمعزل من البلاغة حيث إن ما بعد الصراط المستقيم فيها «حشو وتحصيل حاصل» وما قبله يمكن اختصاره بما لا يضيع شيئا من معناه، كما فعله بعضهم، قال هذا القول داعية من المبشرين المأجورين من قبل جمعيات التبشير الإنكليزية والأمريكانية في كتاب لفقه في إبطال إعجاز القرآن بزعمه، بل أنكر بلاغته من أصلها؛ قال:" وما أحسن قول بعضهم أنه لو قال: الحمد للرحمن، رب الأكوان، الملك الديان، لك العبادة وبك المستعان، اهدنا صراط الإيمان، لأوجز وجمع كل المعنى وتخلص من ضعف التأليف والحشو والخروج عن الرديء كما بين الرحيم ونستعين"(٧).

الرد على الشبهة:

تصدى الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ للرد على هذه الشبهة وتفنيدها من وجوه عدة:

الوجه الأول:

وصف الشيخ ـ رحمه الله ـ بأن هذه المعارضة سخيفة فقال:" هذه معارضة نصرانية سخيفة، للفاتحة الشريفة، يزعم أحد دعاة النصرانية في هذا العصر أنها بمعزل من البلاغة ...." ثم وصف صاحب هذه المعارضة بأنه متعصب جاهل مأجور فقال:" أقول لقد كان خيرا لهذا المتعصب المأجور لإضلال عوام المسلمين على شرط ألا يذكر اسمه في كتيبه، ولا يفضح نفسه بين قومه، أن يختصر لمستأجريه آلهتهم وكتبهم التي صدت جميع مستقلي الفكر.... (٨).

الوجه الثاني:

أن من إعجاز القرآن دقة اختيار اللفظ القرآني، لهذا استدل الشيخ رشيد ـ ـ رحمه الله ـ ـ على جهل هذا المتعصب ببلاغة القرآن حيث يريد اختصار اسم الجلالة الأعظم «الله» الذي لا يغني عنه سرد جميع أسماء الله الحسنى! وكذلك يريد حذف اسم الرحيم ويكفي عنه اسم الرحمن، وقد بيَّن الشيخ ـ رحمه الله فائدته وأن اسم الرحمن لا يغني عنه، وأنى لمثله أن يعلمه؟ ويراجع الفرق بينهما فيما تقدم.

وكذلك استدل الشيخ ـ رحمه الله ـ على جهل هذا المتعصب بالمعنى اللغوي لكلمة الأكوان والعالمين، وكلمة الديان والدين، وكلمة العبادة والاستعانة، وكذلك صراط الإيمان والصراط المستقيم، فقال باستبدال كلمة الأكوان بدلا من العالمين، واستبدال كلمة الديان بدلا من كلمة الدين، واستبدال كلمة الإيمان بدلا من المستقيم، فبيَّن الشيخ ـ رحمه الله ـ أن هذا

استبدال وليس اختصارا، ولكنه استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير وأولى، لأن الفرق في المعنى اللغوي لهذه الكلمات التي قال باستبدالها لا يغني عن الكلمات التي أنزلها الله (ﷻ) (٩).

ويؤكد ما سبق ما جاء في «كتاب الإعجاز اللغوي في القرآن» فقال:" يتأنق أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها يستخدم كلاما حيث يؤدي معناه في دقة فائقة تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له، تلك الكلمة بعينها وإن كلمة أخرى لا تستطيع توفيه المعنى الذى وقت به أختها فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء ولذلك لا تجد في القرآن ترادفا بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديدا ..... فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ يؤدي به المعنى" (١٠).

ويقول الدكتور غازي عناية:" وتفنيدا لهذه الشبهة، وتأكيدا على تفاهتها، فقد تحداهم القرآن بالنسبة لأهم، وأعظم مجالات المعارضة، وهي الأسلوب، والعقيدة.

أ ـ فبالنسبة للأسلوب في البلاغة، والبيان، والفصاحة، فقد تحداهم أكثر من مرة أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فعجزوا مصداقا لقوله (ﷻ):﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾(١١)، أليس في هذا تقريع مثير لهم في المعارضة، وهم أهل الحديث والبلاغة كما يدّعون.

ب ـ وبالنسبة للعقيدة، فقد تحداهم أكثر من مرة، وفي أكثر من مناسبة أن يثبتوا صدق عقائدهم في الوثنية، والكفر، والشرك، بل وسفّه أحلامهم، وأحط من عقائدهم، وديانتهم، وعقائد آبائهم وأجدادهم، وكل ذلك بأساليب الترغيب، والترهيب " (١٢).

الوجه الثالث:

إن إعجاز القرآن يكمن في سر بلاغته وبيان فصاحته، وهذا ما قرّره الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ حيث قال:" بلاغته التي تقاصرت عنها بلاغة سائر البلغاء قبله وفي عصر تنزيله وفيما بعده، ولم يختلف أحد من أهل البيان في هذا، ... (١٣).

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ الزرقاني ـ رحمه الله ـ فقال:" القرآن الكريم فاق كل بيان وأخرس كل لسان وأسكت كل معارض ومكابر وهدم كل مجادل ومهاتر حتى قام ولا يزال يقوم في فم الدنيا معجزة من الله لحبيبه وآية من الحق لتأييد رسوله" (١٤).

فتبين مما سبق أن القرآن الكريم ردًا على من يتوهم أن القرآن ككلام البشر، يعتريه من الضعف ما يعتري كلام البشر، أو أن فصاحته يدانيها كلام الفصحاء، ويقاربها أساليب البلغاء.

وهذا ما ذكره الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ :" وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلا وإجمالا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا" (١٥).

وإلى هذا المعنى أشار الإمام محمد الصالحي (المتوفى:٩٤٢هـ)، فقال:" ووجه إعجازه معلوم ضرورة بجزالة لفظه، وفخامة تأليفه، وبلوغه أقصى درجات مراتب البلاغة والفصاحة وحسن التئام كلماته ونظم آياته وبراعة إيجازه وغرابة فنونه وفصاحة وجوه فواتحه وخواتمه، فلا يحتاج العلم به إلى دليل" (١٦).

وقال الإمام الخطابي ـ رحمه الله ـ :" ذهب الأكثرون من علماء أهل النظر، أن إعجازه من جهة البلاغة، وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال، ..... فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه؛ فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة تعالجان نوعًا من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خُصّ بها القرآن، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه" (١٧).

الوجه الرابع:

قارن الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ بين صلاة المسلمين وما يقرؤنه في صلاتهم من آيات القرآن ويرددونه من تسبيح وأذكار تزكي النفوس وتسعدها في الدنيا والآخرة، وبين صيغة الصلاة في الملة النصرانية ناقلا عن إنجيل متى فقال:" (أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، ولكن نجنا من الشرير آمين) (١٨)، زاد في نسخة الأمريكان: (لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد) وجعلوا هذه الزيادة بين علامتي الكلام الدخيل هكذا «» فمن ذا الذي زادها على كلام المسيح؟ وقد يقول لهم من لا يؤمن بأن هذه الصيغة منقولة نقلا صحيحا عن المسيح (عليه السلام)، أو من لا يؤمن به نفسه: إنها صلاة ليس فيها من الثناء على الله ﷻ ما في فاتحة المسلمين ولا بعضه، وطلب تقديس اسم الأب وإتيان ملكوته تحصيل حاصل، فهو لغو لا يليق بالعاقل، وذكره بصيغة الأمر باللام غير لائق ـ إن لم نقل في انتقاده ما هو أشد من ذلك ـ وأبعد من ذلك عن اللياقة والأدب مع الرب (عز وجل) طلب كون مشيئته على الأرض كمشيئته في السماء. وكونها بصيغة الأمر باللام أيضا، فمشيئته (ﷻ) نافذة في جميع خلقه من سمائه وأرضه بالضرورة، فلا معنى لطلبها، وطلب المساواة بين السماء والأرض فيها إن أريد به من كل وجه، فهو تحكم لا يخفى ما يترتب عليه(١٩).

وقد أشار الأستاذ معاوية محمد الطايع إلى مواقيت الصلاة عند النصارى ناقلا ذلك من أناجيلهم فقال:" اعتمدت الكنيسة في هذه المواقيت على نص في المزمور (٢٠)، جاء فيه: "سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي النَّهَارِ سَبَّحْتُكَ عَلَى أَحْكَامِ عَدْلِكَ" (٢١)، فهي إذن سبع صلوات بين اليوم والليلة، وهي: صلاة باكر، وصلاة الساعة الثالثة، والسادسة، والتاسعة، وصلاة الساعة الحادية عشرة وهي صلاة

الغروب، وصلاة الساعة الثانية عشرة، ومنتصف الليل، وهذه الصلوات ليس لها ترتيب خاص، وإنما هي أدعية تختلف من مكان لمكان وغاية ما يلزم أن تحويه أن تكون على نسق الصلاة الربانية التي قدمها المسيح (٢٢)، ثم فصّل الأستاذ الطايع أوقات الصلاة والنصوص المتلوة فيها ودلالاتها حسب عقيدتهم" (٢٣).

ويقارن الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ بين ما يطلبه النصارى في صلاتهم، وبين ما يطلبه المسلمون في صلاتهم من الهداية فقال:" وأما طلب الخبز الكفاف في كل يوم بصيغة الحصر فهو يفيد أن كل همهم وكل مطلبهم من ربهم ولو لدنياهم هو الخبز الذي يكفيهم، فأين هذا المطلب من طلب الهداية إلى الصراط المستقيم الموصل إلى سعادتي الدنيا والآخرة على أكمل وجه، لكونه نفس صراط خيار الناس دون شرارهم" (٢٤).

وهذا ما أشار الأستاذ غسان صليبي فقال:" يبقى أن الصلاة ليست هي الأهم عند يسوع، لا بل أجازف ربما بالقول إنها تبدو لي غير مهمة بالنسبة إليه، وخاصة بالمقارنة مع المحبة التي هي جوهر المسيحية، فعندما كان يُطلب منه تحديد شروط الدخول الى ملكوت السماوات، لم يكن يذكر الصلاة، بل محبة الآخرين، من خلال إطعام الجياع ومساعدة المرضى وزيارة المساجين"(٢٥).

الشبهة الثانية :

ذكر الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ الاعتراض في هذه الشبهة أن مجرد اختلاف الأسلوب والنظم لا يُعَد معجزا فقال:" يقول قائل: إن أساليب جميع الفصحاء والبلغاء متفاوتة كذلك، لا يشبه أسلوب منها أسلوبا، ولا يستويان منظوما ولا منثورا، فمجرد اختلاف الأسلوب والنظم لا يصح أن يعد معجزا" (٢٦).

الرد على هذه الشبهة :

تصدى الشيخ رشيد رضا للرد على هذه الشبهة وبيّن بطلانها من عدة وجوه:

الوجه الأول :

عدم وجود تشابه بين منظومات الشعر وخطب الخطباء وبين نظم القرآن فقال:" .... فمهما تختلف منظومات الشعراء فلن تعدو بحور الشعر المنقولة عن المتقدمين، .... ومهما تختلف خطب الخطباء والمترسلين من الكُتاب والمؤلفين في العلوم والشرائع والآداب فلن تعدو أنواع الكلام الأربعة التي بدأنا القول بها، ولا يشبه شيء من هذه ولا تلك نظم سورة من سور القرآن ولا أكثرها، ولكل منهم نظم وأسلوب خاص" (٢٧).

وإلى هذا المعنى أشار الدكتور غازي عناية، فقال:" والخطأ الثاني الذي ارتكبوه في تأييد شبهتهم أنهم أجروا مقارنة بين القرآن الإلهي، وبين الكلام البشري عند كلامهم عن أساليب التعبير، والبلاغة، والبيان. فكانت مقارناتهم، وكانت مزاعمهم واهية لم تسعفهم البتة في تأييد

شبهتهم، وتأكيد صحتها. فقد انطلقوا من فرضيات خاطئة لا يوافقهم عليها أحد ثمّ أجروا مناقشاتهم بناءً عليها" (٢٨).

الوجه الثاني:

عقد الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ فصلا في تحقيق وجوه الإعجاز تكلم فيه عن إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه فقال:" اشتماله على النظم الغريب والوزن العجيب، والأسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من كلام العرب في مطالعه وفواصله ومقاطعه، هذه عبارتهم وأوردوا عليها شبهتين وأجابوا عنهما، وحصروا نظم الكلام منثوره مرسلا وسجعا، ومنظومه قصيدا ورجزا في أربعة أنواع، لا يمكن عد نظم القرآن وأسلوبه واحدا منها" (٢٩).

ويستدل الشيخ ـ رحمه الله ـ على ذلك بموقف الوليد بن المغيرة من أكبر بلغاء قريش الذين عاندوا النبي (ﷺ) وعادوه استكبارا، وجاحدوه استعلاء واستنكارا، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي (ﷺ) فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له قال: وماذا أقول «فوَ الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته» قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال:" هذا سحر يؤثر يأثره من غيره فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾(٣٠)، (٣١).

وإلى هذا المعنى أشار الدكتور غازي حيث قال:" إن تفنيد هذه الشبهة يكمن في أن القرآن الكريم تحداهم في مادتهم الكلامية، وفي صنعتهم البيانية، فلم يفلحوا، فالقرآن لم يتحداهم في لغة غير لغتهم، أو في بيان غير بيانهم، أو في كلام غير كلامهم، أو مفردات غير مفردات لغتهم، بل ذهب أبعد من ذلك؛ فالقرآن في إعجازه، وليثبت تحدّيه لم يكلفهم أن يأتوا حتى بنفس صورته الكلامية، أو بنفس أسلوبه المتبع، أو منهاجه المعين، وإنما تحداهم أن يأتوا بكلام شبيه إلى حد ما بكلام القرآن، أو أسلوب يقترب في خصائصه، وسماته، أو منهاج يقارب القرآن في بيانه حتى ولو كان على غير صورة القرآن البيانية" (٣٢).

وهذا ما بيّنه وأشار إليه الدكتور عبد الله دراز ـ رحمه الله ـ ، حيث قال:" ذلك أننا حين نتحدى الناس بالقرآن لا نطالبهم أن يجيئونا بنفس صورته الكلامية، كلا، ذلك ما لا نطمع فيه، ولا ندعو المعارضين إليه، وإنما نطلب كلامًا أيًا كان نمطه ومنهاجه، على النحو الذي يحسنه المتكلم أيًا كانت فطرته ومزاجه، بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية حاذاه أو قاربه في ذلك المقياس وإن كان على غير صورته الخاصة، فالأمر الذي ندعوهم إلى التماثل أو

المقاربة فيه هو هذا القدر الذي فيه يتنافس البلغاء، وفيه يتماثلون أو يتقاربون، وذلك غير المعارض والصور المعينة التي لا بد من الاختلاف فيها بين متكلم ومتكلم" (٣٣).

الوجه الثالث:

يرى الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ أن مسألة النظم والأسلوب من إحدى الكبر وأعجب العجائب فقال:" ولعمري إن مسألة النظم والأسلوب لإحدى الكبر، وأعجب العجائب لمن فكر وأبصر، ولم يوفها أحد حقها، على كثرة ما بدءوا وأعادوا فيها، وما هو بنظم واحد ولا بأسلوب واحد، وإنما هو مائة أو أكثر: القرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة في الطول والقصَر، من السبع الطول التي تزيد السورة فيه على المائة وعلى المائتين من الآيات، إلى السور المئين، إلى الوسطى من المفصل، إلى ما دونها من العشرات فالآحاد كالثلاث الآيات فما فوقها، وكل سورة منها تقرأ بالترتيل المشبه للتلحين، المعين على الفهم المفيد للتأثير، على اختلافها في الفواصل، وتفاوت آياتها في الطول والقصَر..." (٣٤).

وقال في موضع آخر:" وأما أسلوب القرآن فالكلام فيه هو البحر الخضم، والقاموس المحيط الأعظم، فإنه أظهر وجوه الإعجاز اللفظية، وذلك أن يمزج فنون الكلام، وينظم مقاصد الهداية والإرشاد على اختلاف أنواعها، وتباين موضوعاتها، مزجا متلائما، ونظما متناسبا متناسقا، موافقا للذوق السليم، مطابقا لنكت البلاغة" (٣٥).

وهذا ما أشار إليه الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ حيث قال:" ووجوه إعجاز القرآن عشرة: منها النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها، لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء، ... ومنها: الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب. ومنها: الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، .... ونقل الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ عن ابن الحصار إنه قال:" وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب، والجزالة، لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدي والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشر"(٣٦).

بل قرر الإمام الزمخشري ـ رحمه الله ـ أن النظم القرآني هو أم الإعجاز فقال:" قلت: ما ضرك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن" (٣٧).

وهذا ما أشار إليه أيضا الإمام ابن عطية ـ رحمه الله ـ فقال:" وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذاق وهو الصحيح في نفسه أن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه" (٣٨).

الوجه الرابع:

يدعو الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ للتذوق والتأمل وتحكيم الوجدان لمعرفة الفرق بين نظم الكلام البشري والكلام الإلهي فقال:" فإن شئت أن تشعر سمعك وذوقك بالفرق بين نظم الكلام البشري ونظم الكلام الإلهي، فائت بقارئ حسن الصوت يسمعك بعض أشعار الملفقين،

وخطب المصاقع المفوهين، ... ثم ليتلُ عليك بعد ذلك بعض سور القرآن المختلفة النظم والأسلوب كسورة النجم وسورة القمر ... ثم حَكِّمْ ذوقك ووجدانك في الفرق بينها في أنفسها، ثم في الفرق بين كل منها وبين كلام البشر في كل أسلوب من أساليب بلغائهم، ..... بل تأمل المعنى الواحد من المعاني المكررة في القرآن، لأجل تقريرها في الأنفس ونقشها في الأذهان، كالاعتبار بأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم من مختصر ومطول، وافطن لاختلاف النظم والأساليب فيها، فمن المختصر ما في سور الذاريات والنجم ...، ومن المطول ما في سورة الأعراف والشعراء وطه، لعلك إن تدبرت هذا تشعر بالبون الشاسع بين كلام المخلوقين وكلام الخالق، وتحكم بهذا الضرب من الإعجاز حكما ضروريا وجدانيا لا تستطيع أن تدفعه عن نفسك، وإن عجزت عن بيانه بقولك، ومن اللطائف البديعة التي يخالف بها نظم القرآن نظم كلام العرب من شعر ونثر: أنك ترى السور ذات النظم الخاص والفواصل المقفاة تأتي في بعضها فواصل غير مقفاة، فتزيدها حسنا وجمالا وتأثيرا في القلب..." (٣٩).

وهذا ما قرره الشيخ الشعراوي ـرحمه اللّه ـ فقال:" فلا شكَّ أنك ستعرف انتقالك من النثر إلى الشعر، وسوف تميّز أذنك بين الأسلوبين، لكن أسلوب القرآن غير ذلك، فأنت تقرأ آياته فتجدها تناسب انسيابا لا تلحظ فيه أنكَ انتقلت من نثر إلى شعر، أو من شعر إلى نثر، واقرأ قول اللّه ﷻ: ﴿ * نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٤٠)، أجْرِ عليه ما يُجريه أهل الشعر من الوزن، فسوف تجد بها وزنا شعريا ـــ مستفعل فاعلات.... وكذلك قوله: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ (٤١)، تعطيك الشطر الثاني من البيت، لكن هل لاحظت ذلك في سياق الآيات؟ وهل لاحظت أنك انتقلت من شعر إلى نثر، أو من نثر إلى شعر؟ إذن: فالقرآن نسيج فريد لا يُقال له: شعر ولا نثر، وهذا الأمر لا يَخفى على العربي الذي تمرَّس في اللغة شعرها ونثرها، ويستطيع تمييز الجيّد من الرديء" (٤٢).

ويقول الدكتور عبد اللّه دراز ـ رحمه اللّه ـ :" أمّا الأسلوب القرآني، فإنه يحمل طابعا لا يلتبس معه بغيره، ولا يجعل طامعا يطمع أن يحوم حول حماه، بل يَدع الأعناق تشرئب إليه ثمّ يردها ناكسة الأذقان على الصدور" (٤٣).

فعلى هذا القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يتميز بأن كل كلمة من كلماته قد وضعت في مكان مناسب لا يمكن تغييره أو تبديله، فلا يمكن أن تحلّ كلمة مكان كلمة أو يحل حرف مكان حرف من حروف القرآن، وهذه القاعدة تنطبق على القرآن كله.

الشبهة الثالثة :

ذكر الشيخ رشيد رضا ـ رحمه اللّه ـ أن مثار هذه الشبهة أنه يوجد تعارض واختلاف في القرآن فقال:" (فإن قيل): إن غير المؤمنين بالقرآن قد استخرجوا منه بعض الاختلاف والتعارض، فاضطر علماء المسلمين إلى الجواب عنها يزعمون أنه دفع الإيراد، وأظهر بطلان الانتقاد، وأن المسلم يقبل ذلك منهم تقليدا، وإن لم يكن في نفسه سديدا"(٤٤).

الرد على هذه الشبهة :

لقد تصدى الشيخ رشيد رضا للرد على هذه الشبهة وبيان فسادها من وجوه:

الوجه الأول:

يرى الشيخ ـ رحمه الله ـ أن هذا الاعتراض من التهم التي تكال وتقال ضد القرآن، وليس في القرآن تعارضا حقيقيا يُعد مطعنا فيه فقال: "وإننا إذا لم نلتفت إلى كلام أعداء القرآن الذين يخترعون التهم أو يزينونها بخلابة القول ـ ولا إلى المقلدين من المسلمين ـ ... نرى أنه ليس في القرآن تعارض حقيقي معنوي يُعد مطعنا صحيحا فيه،... ولكن هذا النوع من الإعجاز إنما يظهر في جملة القرآن في السور الطويلة منه لا في كل سورة، فإن سلامة السورة القصيرة من ذلك لا يُعد أمرا معجزا يتحدى به"(٤٥).

الوجه الثاني:

استدل الشيخ رشيد رضا ــ رحمه الله ــ بسلامة القرآن من الاختلاف والتعارض أنه من عند الله ﷻ فقال عند تفسير قوله: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾(٤٦)، فقال:" وقد ظهر هذا القرآن في أمة أمية لا مدارس فيها ولا كتب على لسان أمي لم يتعلم قراءة ولا كتابة، فكيف يمر عليه ثلاثة عشر قرنا يتغير فيها العمران البشري كما قلنا، ولا يظهر فيه اختلاف ولا تفاوت حقيقي يعتد به، ويصلح أن يكون مطعنا فيه! أليس هذا برهانا ناصعا على كونه من عند الله أوحاه إلى عبده ورسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟" (٤٧).

وقد اختلف المفسرون في تفسير الاختلاف فقال الإمام الماوردي ـ رحمه الله ـ :" في الاختلاف ها هنا ثلاثة أقاويل: أحدها: تناقض من جهة حق وباطل، وهذا قول قتادة، وابن زيد. والثاني: من جهة بليغ ومرذول، وهو قول بعض البصريين. والثالث: يعني اختلافا في الأخبار عما يُسرُّون، وهذا قول الزجاج" (٤٨).

وفي فتح القدير للإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ ما نصه:" تفاوتا وتناقضا، ولا يدخل في هذا اختلاف مقادير الآيات، والسور؛ لأن المراد اختلاف التناقض والتفاوت، وعدم المطابقة للواقع، وهذا شأن كلام البشر لا سيما إذا طال، وتعرَض قائله للإخبار بالغيب، فإنه لا يوجد منه صحيحا مطابقا للواقع إلا القليل النادر" (٤٩).

وقال الإمام البيضاوي ـ رحمه الله ـ ما نصه:" ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي ولو كان من كلام البشر كما تزعم الكفار. ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ من تناقض المعنى وتفاوت النظم، وكان بعضه فصيحا وبعضه ركيكا، وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل، ومطابقة بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض، على ما دل عليه الاستقراء لنقصان القوة البشرية. ولعل ذكره ها هنا للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس لتناقض في الحكم بل لاختلاف الأحوال في الحكم والمصالح"(٥٠).

وقال الإمام النسفي ـ رحمه الله ـ :" أي تناقضا من حيث التوحيد والتشريك والتحليل والتحريم، أو تفاوتا من حيث البلاغة فكان بعضه بالغا حد الإعجاز وبعضه قاصرا عنه يمكن معارضته، أو من حيث المعاني فكان بعضه إخبارا بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخبارا مخالفا للمخبر عنه، وبعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالا على معنى فاسد غير ملتئم" (٥١).

الوجه الثالث:

ردّ الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ دعوى سلامة كتب أهل الكتاب المقدسة من التعارض والاختلاف والتناقض ومخالفة حقائق الوجود الثابتة فقال:" إن هذا النوع من مخالفة كلام الخالق لكلام الخلق يجب أن يكون مشتركا بين القرآن وغيره من الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل، لو بقيت كما أنزلت من غير تحريف ولا تبديل، ومن المعلوم من التاريخ بالقطع عندنا وعندهم أن التوراة التي كتبها موسى (عليه السلام) ووضعها في التابوت (صندوق العهد) وأخذ الميثاق على بني إسرائيل بحفظها كما هو منصوص في آخر سفر (تثنية الاشتراع) قد فقدت من الوجود عندما أغار البابليون على اليهود وأحرقوا هيكل بيت المقدس، والتوراة الموجودة الآن يرجع أصلها إلى ما كتبه عزرا الكاهن بأمر " ارتحشستا " ملك فارس الذي أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى أورشليم، وأذن له أن يكتب لهم كتابا من شريعة الرب ..... وقد بينا تحقيق ذلك في تفسير أول سورة آل عمران، ..... كما بينا أن إنجيل المسيح (عليه السلام) لم يدون في عصره ولم ينقل عنه وعن الحواريين كما نقل القرآن تواترا بالحفظ والكتابة، ولا كنقل الحديث بالأسانيد المتصلة، وإنما ظهرت هذه الأناجيل التي هي قصص مختصرة له واشتهرت بعد ثلاثة قرون، كما ظهر عشرات غيرها.."(٥٢).

الوجه الرابع:

يقرر الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ سلامة القرآن من التعارض والاختلاف، و يجعل ذلك من وجوه إعجاز القرآن فقال :" إعجاز القرآن بسلامته من الاختلاف: هو سلامته على طوله من التعارض والتناقض والاختلاف، خلافا لجميع كلام البشر، وهو المراد بقوله (جل جلاله): ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾(٥٣)، وإننا نجد كبار العلماء في كل عصر يصنفون الكتاب فيسودون، ثم يصححون ويبيضون، ثم يطبعون وينشرون، ثم يظهر لهم ولغيرهم كثير من التعارض والاختلاف والأغلاط اللفظية والمعنوية ولا سيما إذا طال الزمان، وهذا أمر مشهور في جميع الأمم" (٥٤).

وهذا ما أشار إليه الإمام أبو حيان ـ ـ رحمه الله ـ ـ فقال:" ووجه هذا الدليل أنه ليس من متكلم كلاما طويلا إلا وجد في كلامه اختلاف كثير، إما في الوصف واللفظ، وإما في المعنى بتناقض أخبار، أو الوقوع على خلاف المخبر به، أو اشتماله على ما لا يلتئم، أو كونه يمكن معارضته، والقرآن العظيم ليس فيه شيء من ذلك، لأنه كلام المحيط بكل شيء مناسب بلاغة

معجزة فائتة لقوى البلغاء، وتظافر صدق أخبار، وصحة معان، فلا يقدر عليه إلا العالم بما لا يعلمه أحد سواه" (٥٥).

الشبهة الرابعة:

ذكر الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ أن الطاعنين في الإسلام من الملاحدة ودعاة النصرانية يزعمون أن العلوم والفنون العصرية، من طبيعية وفلكية وتاريخية، قد نقضت بعض آيات القرآن في موضوعها، وأن التشريع العصري أقرب إلى مصالح البشر من تشريعه (٥٦).

الرد على هذه الشبهة:

لقد تصدى الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ للرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول:

يرى الشيخ ـ رحمه الله ـ أن سبب هذا الاعتراض يرجع إلى سوء الفهم، والتحريف والتضليل فقال:" إننا قد اطلعنا على أقوالهم في ذلك فألفينا أن بعضها جاء من سوء فهمهم أو فهم بعض المفسرين، ومن جمود الفقهاء المقلدين، وبعضها من التحريف والتضليل، ..... وإنما العبرة بالنقض الذي لا يمكن لأحد أن يماري فيه مراءً ظاهرا مقبولا، ولو وجد شيء من هذا في القرآن لاضطرب العالم له اضطرابا عظيما، كما أن العبرة في التشريع بما جمع بين المصلحة العامة والفضيلة والرحمة، والتشريع الإسلامي يفضل التشريع الأوربي المادي بهذا ويسبقه إلى السؤال، وقد سبقه إلى العدل والمساواة" (٥٧).

الوجه الثاني:

يرى الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ أن من وجوه إعجاز القرآن اشتماله على العلوم الإلهية الموافقة لكل زمان ومكان، فقال:" إعجاز القرآن بالعلوم الدينية والتشريع: هو اشتماله على العلوم الإلهية، وأصول العقائد الدينية، وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان، وبذلك يفضل كل ما سبقه من الكتب السماوية، ومن الشرائع الوضعية، ومن الآداب الفلسفية، كما يشهد بذلك أهل العلم المنصفون من جميع الأمم الشرقية والغربية، من آمن منهم بكونه من عند الله (ﷻ) أنزله على رسوله الأمي، ومن لم يؤمن بذلك، ..... فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع أن يأتي ما في القرآن منها تحقيقا وكمالا، ويؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئا منها، ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحيا من الله (ﷻ)؟" (٥٨).

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ الزرقاني ـ رحمه الله ـ فقال:" أن القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حاكم الناس إلى عقولهم وفتح عيونهم إلى الكون وما في الكون من سماء وأرض، وبر وبحر وحيوان ونبات وخصائص وظواهر ونواميس وسنن، وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقا كل التوفيق بل كان معجزا أبهر الإعجاز لأن حديثه عن تلك

الكونيات كان حديث العليم بأسرارها الخبير بدقائقها المحيط بعلومها ومعارفها على حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رجل أمي نشأ في أمة أمية جاهلة لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ولا إلمام لها بكتبها ومباحثها، بل إن بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط الوحي بقرون وأجيال، فأنى يكون لرجل أمي كمحمد ذلك السجل الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم قال الله (ﷻ) مقررا لهذا الإعجاز العلمي: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٥٩)، (٦٠).

الوجه الثالث:

يذكر الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ أن من إعجاز القرآن عجز الزمان على إبطال شيء منه فقال:" أن القرآن يشتمل على بيان كثير من آيات الله تعالى في جميع أنواع المخلوقات من الجماد والنبات والحيوان والإنسان، ويصف خلق السماوات وشمسها وقمرها ودراريها ونجومها والأرض والهواء والسحاب والماء من بحار وأنهار وعيون وينابيع، وفيه تفصيل لكثير من أخبار الأمم، وبيان لطريق التشريع السوي للأمم، وقد حفظ ذلك كله فيه بكلمه وحروفه منذ ثلاثة عشر قرنا ونيف، ثم عجزت هذه القرون التي ارتقت فيها جميع العلوم والفنون أن تنقض بناء آية من آياته، أو تبطل حكما من أحكامه، أو تكذب خبرا من أخباره، وهي التي جعلت فلسفة اليونان دكا، ونسخت شرائع الأمم نسخا، وتركت سائر علوم الأوائل قاعا صفصفا، ...."(٦١).

ويبين الدكتور غازي عناية الفرق بين علوم القرآن الإلهية، وبين علوم العلماء البشرية فيقول:" هناك فرق كبير، وبون شاسع بين علوم القرآن الإلهية، وبين علوم العلماء البشرية. ومن السخافة بمكان أن يقارن الإلهي بالبشرى. فالعلم الإلهي دائما معجز. والعلم البشري دائما غير معجز، ويؤتى بمثله، وأحسن. والعلم الإلهي ثابت في إعجازه إلى أبد الآبدين؛ فلا ينقض، ولا يخالف. والعلم البشري غير ثابت في حقيقته، وقابل للنقض والتطور. والعلم الإلهي في القرآن يقيني في قطعيته لا تنتابه شواهد الظنية البشرية. والعلم البشري الظني لا يقوى على مخالفة العلم اليقيني القطعي في القرآن. والحقائق العلمية القرآنية حقائق نهائية، وقطعية. وأمّا نظيرتها البشرية، فليس كلها ذلك. وما ثبتت يقينيته أو قطعيته من العلوم والحقائق العلمية البشرية، فهو يقيني، وقطعي في القرآن..."(٦٢).

الوجه الرابع:

يقرر الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ أن المسلمين في أشد الحاجة إلى الفنون والعلوم العصرية، مع التمسك بالكتاب والسنة فيجمعوا بين مصالح الدنيا والآخرة فيقول:" نريد أن نجمع لأمتنا بين مصالح الدنيا والآخرة، وقد عرف هذا كُتاب الإفرنج واعترفوا بفائدته فلا ينبغي للمسلمين أنفسهم أن يجهلوه! نحن في حاجة عظيمة إلى العلوم والفنون والصناعات العصرية التي تقوى بها أمتنا وتعتز بها دولتنا، ولا يكون الخير في ذلك تامًا إلا إذا أقمنا معه أصول ديننا،

وهي القرآن الحكيم والسنة السنية التي جرى عليها سلفنا الصالح، ولا تنافي بين الأمرين، فنحن إذا لم نجمع بين مصالح الدنيا وهداية الدين لا تقوم لنا قائمة..." (٦٣).

ويرى الشيخ رشيد ـ رحمه الله ـ إمكانية الجمع بين حقيقة الإسلام والعلوم العصرية فقال:" ونحن نقول: إنه يمكن الجمع ابتداء بين حقيقة الإسلام وصبغته الإلهية، وبين جميع العلوم والفنون والأعمال التي عليها مدار المدنية العصرية، وإن إصلاح المسلمين بغير هذه الطريقة متعذر" (٦٤).

التعليق:

فالقرآن كله معجز في بيانه، وفي حقائقه، وفي غيبياته، وفي أخباره، وفي تشريعاته، وفي علومه. شواهده الكمال في التشريع، والفصاحة في البيان، وستظل شواهد الإعجاز القرآني سواء بالفصاحة في البيان، أو المعالجة بالتشريع، ما دامت قوة الخلق في الإبداع، والكمال في الحلول في معزل عن قدرة المخلوق.

الشبهة الخامسة:

ذكر الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ أن كثيرا من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص، ويقولون هنا: إن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه وقبل الأمر بدخول تلك القرية، فذكر هنا بعد تلك الوقائع (٦٥).

الرد على هذه الشبهة:

لقد تصدى الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ للرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول:

قرّر الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ ـ أن القصص في القرآن الكريم المراد منه الهداية والإصلاح، والعظة والاعتبار، وليس ترتيب الأحداث والوقائع، فهذا من شأن تأليف البشر فقال:" والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مرارا في قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن، وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة، ..... فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى التأثير، ..... فإن ترتيب الوقائع هو من الزينة في وضع التأليف، فلا يتوقف عليه الاعتبار، بل ربما يصد عنه بما يكلف الذهن من ملاحظته وحفظه، فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمي، جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع في الإنسان" (٦٦).

وقال في موضع آخر:" جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يسبق إليه ولم يلحق فيه، فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين، ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى في القصة الواحدة، وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا، ويهز النفس للاعتبار هزا" (٦٧).

لذا قسّم الشيخ مناع القطان ـ رحمه الله ـ القصص في القرآن إلى أنواع ثلاثة:"

النوع الأول:

قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين، كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعًا ـ أفضل الصلاة والسلام.

النوع الثاني:

قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت ثبوتهم، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحوهم.

النوع الثالث:

قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله (ﷺ) كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك (٦٨).

الوجه الثاني:

أجمع علماء الإسلام أن قصص القرآن كله حق وصدق، وليس مجرد حكاية وقصة خيالية، مصداقا لقول الله (ﷻ): ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ (٦٩)، قال الشيخ رشيد رضا ـــ رحمه الله ـ :" أي يقص على رسوله القصص الحق في جميع أخباره ووعده ووعيده، أو يتتبع الحق ويصيبه في أقواله وأفعاله التي يتصرف بها في عباده" (٧٠).

وقال الإمام الرازي ـ رحمه الله ـ :" فبيّن (ﷺ) أن الذي أنزله على نبيه هو القصص الحق ليكون على ثقة من أمره، والخطاب وإن كان معه فالمراد به الكل" (٧١).

وقال الشيخ عبد الكريم يونس الخطيب:" إن الذي يقصه القرآن الكريم من أحداث ومواقف، هو القصص الحق، لأنه منزل من الحق سبحانه وتعالى.. ومن الحق الذي تحدث به القرآن"(٧٢).

ويؤكد هذا المعنى الشيخ الشعراوي ـ رحمه الله ـ ـ فيقول:" يلفتنا إلى أن ما يرويه الحق لنا هو الحق المطلق، وليس مجرد حكاية أو قصة، أو مزج خيال بواقع، كما يحدث في العصر الحديث، عندما أخذت كلمة القصة في العرف الأدبي الحديث ـ القادم من حضارة الغرب ـ إن القصة بشكلها الحديث المعروف إنما يلعب فيها الخيال دورا كبيرا، لكن لو عرفنا أن كلمة «قصة» مشتقة من قصّ الأثر لبحث أهل الأدب فيما يكتبون من روايات وخيالات عن كلمة أخرى غير «قصة» ، فالقصص هو تتبع ما حدث بالفعل لا تبديل فيه ولا أخيلة" (٧٣).

الوجه الثالث:

استدل الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ على تحدي القرآن الكريم بإتيان الخبر الواحد بأساليب مختلفة متساوية في البلاغة فقال:" والظاهر أن التحدي في سورتي يونس وهود خاص ببعض أنواع الإعجاز، وهو ما يتعلق بالأخبار كقصص الرسل مع أقوامهم وهو من أخبار الغيب الماضية التي لم يكن لمن أنزل عليه القرآن علم بها ولا قومه كما قال تعالى عقب قصة نوح ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ (٧٤)

وكما قال عقب قصة موسى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(٧٥)، وكما قال عقب قصة مريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ﴾(٧٦)، ولعل وجه التحدي بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة، هو إرادة نوع خاص من أنواع الإعجاز وهو الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية في البلاغة وإزالة شبهة تخطر بالبال" (٧٧).

الوجه الرابع:

ليس في القرآن تكرار بل هو تنوع في الأسلوب، قال الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ" ولكن القرآن عبّر عن بعض المعاني وبعض القصص بعبارات مختلفة الأسلوب والنظم من مختصر ومطول، والتحدي بمثله لا يظهر في قصة مخترعة مفتراه بل لا بد من التعدد الذي يظهر فيه التعبير عن المعنى الواحد والقصة الواحدة بأساليب مختلفة وتراكيب متعددة"(٧٨).

ويؤيد هذا المعنى ما ذكره الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن قصة موسى وتكرارها في القرآن حيث قال:" وقد ذكر الله هذه القصة في عدة مواضع من القرآن يبين في كل موضع منها من الاعتبار والاستدلال نوعا غير النوع الآخر، كما يسمي الله رسوله وكتابه بأسماء متعددة كل اسم منها يدل على معنى لم يدل عليه الاسم الآخر، وليس في هذا تكرار بل فيه تنويع الآيات، مثل: أسماء النبي (ﷺ) إذا قيل: محمد وأحمد؛ والحاشر والعاقب؛ والمقفى؛ ونبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة في كل اسم دلالة على معنى ليس في الاسم الآخر، وإن كانت الذات واحدة فالصفات متنوعة، وليس في القرآن تكرار أصلا"(٧٩).

ويؤكد هذا المعنى الأستاذ محمد قطب ـ رحمه الله ـ حيث يرى أنه ليس في القرآن تماثل يؤدي إلى التكرار، بل هو تشابه فقط، فقال:" وإذا كان الأمر كذلك في الكلام بصفة عامة فهو كذلك في القرآن بصورة أدق، وخاصة حين نتحدث عن ظاهرة التكرار في القرآن، ففيما عدا النصوص النادرة التي أشرنا إليها لا يوجد نصان متماثلان في القرآن كله! إنما يوجد تشابه فقط دون تماثل، ... ولكنه ليس تكرارا بحال من الأحوال" (٨٠).

وجاء في كتاب «التكرار في القصص القرآني» أن من ينظر في آيات القرآن الكريم يجد أن الله (ﷻ) كرر ذكر كثير من الأنبياء في أكثر من سورة، وأكثر من موضع مثل قصة موسى (عليه السلام) فقد ذكرت في كثير من سور القرآن الكريم منها سورة البقرة والمائدة والأعراف ويونس وهود وطه والقصص والشعراء والنمل وغافر والنازعات، كما نجد أنه قد تكرر آيات بعينها لغايات مقصود بها، أو تكرار كلمة في الآية، والحق أن تكرار القصص القرآني ليس

تكرارا للقصة بآياتها وعباراتها وإنما هو ذكر جانب أو أكثر من القصة في موضع لمناسبة، وذكر جانب آخر أو أكثر في غيره لمناسبة أخرى، مع تباين واختلاف هذه الجوانب بعضها عن بعض، بمعنى أن القصة إذا قرأتها في مكان آخر فانك تقرأ في الموضع الآخر جانبا لم يذكر في الموضع الأول، تكملة للصورة العامة التي يقررها القرآن في قصصه" (٨١).

الوجه الخامس:

قرّر الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ أن إيتاء النبي (ﷺ) أمثال هذه القصص من دلائل نبوته (ﷺ) فقال:" أن إيتاء النبي الأمي أمثال هذه القصص من دلائل نبوته فقال: (تلك آيات الله) يشير إلى قصة الذين خرجوا من ديارهم وقصة بني إسرائيل التي بعدها (نتلوها عليك بالحق) فيه تعريض بأن ما يقوله بنو إسرائيل مخالف لهذا فهو باطل (وإنك لمن المرسلين) إذ لولا الرسالة لما عرفت شيئا من هذه القصص وأنت لم تكن في أزمنة وقوعها ولا تعلمت شيئا من التاريخ، ولو تعلمته لجئت بها على النحو الذي عند أهل الكتاب أو غيرهم من القصاصين، وقد قرر تعالى هذه الحجة على نبوته (ﷺ) في سورة القصص بعد ذكر قصة موسى في مدين، وذكر نبوته (ﷺ) بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (٨٢).

الوجه السادس:

إن القرآن الكريم اشتمل على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن، وتعرض في صور مختلفة في التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، وما شابه ذلك، لذا بيّن الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـــ الحكمة من تكرار القصص القرآني، فقال:" ومن سنة القرآن في القصص المكررة أن يذكر في كل منها ما لم يذكر في الأخرى لتنويع الفوائد ودفع الملل عن القارئ، وقد اقتبس ذلك البخاري في أحاديث جامعه الصحيح المكررة فتحرى في كل باب أن ينفرد بفائدة" (٨٣).

الخاتمة:

بيّن هذا البحث أن الشيخ رشيد رضا أولى القرآن الكريم عناية بالغة واهتماما كبيرا، فأشار إلى خصائصه ومكانته بين الكتب الإلهية وما امتاز به عليها، وما اشتمل عليه من النور والهدى.

وذكر الشيخ رشيد رضا أن الطاعنين في الإسلام من الملاحدة ودعاة النصرانية يزعمون أن العلوم والفنون العصرية، من طبيعية وفلكية وتاريخية، قد نقضت بعض آيات القرآن في موضوعها، وأن التشريع العصري أقرب إلى مصالح البشر من تشريعه.

وقرر الشيخ رشيد رضا أن المسلمين في أشد الحاجة إلى الفنون والعلوم العصرية، مع التمسك بالكتاب والسنة فيجمعوا بين مصالح الدنيا والآخرة.

الهوامش

(١) سورة فصلت: الآية: (٤٢).

(٢) الوحي المحمدي: (٩٤).

(٣) سورة الحجر: الآية: (٩).

(٤) تفسير المنار: (١٤،١٣/٨)، وتفسير الشعراوي: (٧٦٥٣/١٢).

(٥) تفسير أبي السعود: (٥/ ٦٨).

(٦) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، المؤلف: علي بن نايف الشحود، المصدر: الشاملة الذهبية، (٣٦٧/٥).

(٧) تفسير المنار: (٦٦/١).

(٨) تفسير المنار: (٦٦/١).

(٩) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(١٠) الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم: (٥٣).

(١١) سورة الطور: من الآية: (٣٤).

(١٢) شبهات حول القرآن وتفنيدها: الدكتور. غازي عناية: دار ومكتبة الهلال ــ بيروت، ١٤١٦هـ١٩٩٦م، (١٩١،١٩٠).

(١٣) تفسير المنار: (١٦٧/١).

(١٤) مناهل العرفان في علوم القرآن: (٢٩٦/١).

(١٥) تفسير ابن كثير: (١٠٩/١).

(١٦) سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، المؤلف: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت: ٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، (٤٠٨/٩).

(١٧) بيان إعجاز القرآن: الخطابي (ت: ٣٨٨هـ)، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٦م، (٢٦،٢٤).

(١٨) إنجيل متى: (٦/٩ـ١٣).

(١٩) تفسير المنار: (٦٩/١).

(٢٠) سفر مزمور: (١١٩: ١٦٤).

(٢١) علم اللاهوت بحسب معتقد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ميخائيل مينا، مكتبة المحبة، القاهرة، ط٢، ١٩٤٨م، (٢/ ١٩٣ـ١٩٤).

(٢٢) المسيحية، أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٠، ١٩٩٨م، (٢٣٦).

(٢٣) موقع شبكة الإعلام المجتمعي: مقال: الصلاة عند المسيحيّين: تسبيح للربّ واستجابة لأشواق القلب، الأستاذ معاوية محمد الطايع: تاريخ النشر: ٢٠٢٠/٢/١٦.

(٢٤) تفسير المنار: (٦٩/١).

(٢٥) جريدة النهار: مقال: صلاة يسوع وصلوات المسيحيين، غسان صليبي، تاريخ النشر: ٢٠٢١/٣/٢٨م.

(٢٦) تفسير المنار: (١٦٦/١).

(٢٧) المرجع السابق: الصفحة نفسها.

(٢٨) شبهات حول القرآن وتفنيدها: (١٩٩).

(٢٩) تفسير المنار: (١٦٥/١)، وتفسير الألوسي: (٢٨/١).

(٣٠) سورة المدثر: الآية: (١١).

(٣١) (صحيح) المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، (٥٥٠/٢)، برقم (٣٨٧٢)، قال الحاكم:" هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه"، وتفسير المنار: (١٦٥/١).

(٣٢) شبهات حول القرآن وتفنيدها: (٢٠٠).

(٣٣) النبأ العظيم: المؤلف: محمد بن عبد الله دراز (ت: ١٣٧٧هـ)، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية: قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني: الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة: طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ ـ٢٠٠٥م، (١٢٤).

(٣٤) تفسير المنار: (١٦٦/١).

(٣٥) المصدر السابق: (٢٩٨/٩)، والوحي المحمدي: (٩٩).

(٣٦) تفسير القرطبي: (٧٣/١).

(٣٧) تفسير الزمخشري: (٦٣/٣).

(٣٨) تفسير ابن عطية: (٥٢/١).

(٣٩) تفسير المنار: (١٦٦/١،١٦٧).

(٤٠) سورة الحجر: الآية: (٤٩).

(٤١) سورة الحجر: الآية: (٥٠).
(٤٢) تفسير الشعراوي: (٨٥٨٤/١٤).
(٤٣) النبأ العظيم: (١٢٩).
(٤٤) تفسير المنار: (١٧١/١).
(٤٥) تفسير المنار: (١٧٣/١).
(٤٦) سورة النساء: من الآية: (٨٢).
(٤٧) تفسير المنار: (٥/ ٢٣٥).
(٤٨) تفسير الماوردي: (٥١٠/١)، وتفسير السمعاني: (٤٥٣/١)، وتفسير الطبري: (٥٦٧/٨)، وتفسير زاد المسير: (٤٣٨/١).
(٤٩) فتح القدير: (٥٦٧/١).
(٥٠) تفسير البيضاوي: (٨٦/٢).
(٥١) تفسير النسفي: (٣٧٨/١)، وتفسير الرازي: (١٥٢،١٥١/١٠).
(٥٢) تفسير المنار: (١٧٤/١).
(٥٣) سورة النساء: من الآية: (٨٢).
(٥٤) تفسير المنار: (١٧١/١).
(٥٥) تفسير البحر المحيط: (٧٢٦/٣)، وتفسير القرطبي: (٢٩٠/٥).
(٥٦) تفسير المنار: (١٧٣/١).
(٥٧) المصدر السابق: (١٧٤/١).
(٥٨) تفسير المنار: (١٧١/١)، وجواهر القرآن: المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ)، المحقق: الدكتور الشيخ محمد رشيد رضا القباني، الناشر: دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، (٤٤).
(٥٩) سورة العنكبوت: الآية: (٤٨).
(٦٠) مناهل العرفان في علوم القرآن: (٢٦،٢٥/١).
(٦١) تفسير المنار: (١٧٢/١).
(٦٢) شبهات حول القرآن وتفنيدها: (٢٤٧،٢٤٦).
(٦٣) مجلة المنار: (٧٣٧/١١).
(٦٤) مجلة المنار: (٦٧٣/١٠).

(٦٥) تفسير المنار: (٢٧١/١).
(٦٦) المصدر السابق: (٢٨٧/١).
(٦٧) تفسير المنار: (٢٨٧/١).
(٦٨) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان: (٣١٧).
(٦٩) سورة آل عمران: من الآية: (٦٢).
(٧٠) تفسير المنار: (٧/ ٣٧٩).
(٧١) تفسير الرازي: (٨/ ٢٥٠)
(٧٢) التفسير القرآني للقرآن: المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠هـ)، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة، (٤٨٢/٢)، وتفسير البغوي: (٤٥١/١)، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان: (٣١٩).
(٧٣) تفسير الشعراوي: (١٥٢١/٣)، والبحر المديد لابن عجيبة: (٣٦٣/١)، وتفسير المنار: (٢٦٧/٣).
(٧٤) سورة هود: من الآية: (٤٩).
(٧٥) سورة القصص: الآية: (٤٤).
(٧٦) سورة آل عمران: الآية: (٤٤).
(٧٧) تفسير المنار: (١/ ١٦١).
(٧٨) المصدر السابق: الصفحة نفسها.
(٧٩) مجموع الفتاوى: (١٦٨،١٦٧/١٩).
(٨٠) دراسات قرآنية: المؤلف: محمد بن قطب بن إبراهيم، المصدر: الشاملة الذهبية، (٢/١٤).
(٨١) التكرار في القصص القرآني: المؤلف: د. أمين محمد عطية باشا، المصدر: الشاملة الذهبية،(٤).
(٨٢) سورة القصص: الآيتين: (٤٤،٤٥).
(٨٣) تفسير المنار: (٨/ ٤٤٢).